يوم كنت مديرًا للدعاية والإرشاد؟!

توفيق الحكيم

لم يكن فى توقعى المضى فى الكتابة فى مجلة « أكتوبر » . ولكن . ما دامت تقود فى يد أنيس منصور فأمرى إلى الله ؟ . . ولكن المشكلة فيما اكتب وأنا لا أريد اليوم الكتابة فى الهم والغم ؟ . . ولقد سبق أن قلت إن الكاتب ما يكتب بدوافع ثلاثة : الإصلاح . أو الحب . أو المال . . أما الإصلاح فغيرى أصلح منى . . وأما الحب فأين أجده ؟ . . وأما المال فهو عند أنيس منصور . . بقيت الكتابة .

وليس فى رأسى غير ذكريات الماضى . فلأرجع إليها . . وأنه لتراءى لى الآن صورة لى كدت أنسى ملامحها . . صورة الموظف الكاتب الذى اقترح يوما إنشاء وزارة للحياة الاجتماعية . فلم تمر شهور على اقتراحه حتى انشئت بالفعل هذه الوزارة باسم وزارة الشئون الاجتماعية . كان ذلك فى أواخر عام ١٩٣٩ . فى الوقت الذى أعلنت فيه الحرب العالمية الثانية . وكان للزعيم الأطاق هتلر وزارة باسم وزارة الدعاية وزيرها جوبلز . فصدر المرسوم الملكى عندما بأن نكون فى وزارة الشئون ادارة باسم إدارة الدعاية . وأخذت أنا بها ولا فخر . وحوفا من الشبه بجوبلز اضافوا كلمة « الارشاد » . فصرت مدير إدارة الدعاية والارشاد . ربما كنا رقيقة بلدا غير محارب سألت عن الدعاية عندى كيف تكون ؟ فقالوا لشئون المجتمع .

وكان وزيرى رجلا خبوحا من طراز « أبولعه » . فكان يصدر كل يوم بيانا يعلن فيه أن وزارته فعلت وستعمل كذا وكذا وكيت وكيت . والناس فى عجب لا يرون حولهم شيئا بدأ أو سيدأ . ولقد صبر الجرائد . فاذا بصحيفة جريئة ارادت نقد الوزير فوضعت صورته فى برواز كبير وكتبت تحته عبارة العبر على الفشر والهر . وظهرت الصحيفة . واذا الصورة التى فى البرواز ليست صورة الوزير . بل صورتى أنا . فأسرعت عندما أسأل الصحيفة فقالت ان الرقابة لم تسمح بنقد الوزير . فقد كانت الرقابة قد وضعت بسبب قيام الحرب . ولم يجدوا حلا إلا نشر صورتى بدلا من صورة الوزير . وكان هذا الوزير معروفا بأنه هلاس وزير نساء . فقلت فى . واذا ضبط الوزير فى بيت مشبوه . فهل ستنشر صورتى أنا ؟ ؟

قالوا كل شىء جائز . وجاء شهر رمضان المبارك . وغادرت مكتبى بالوزارة فى الظهيرة . وسرت فى الطريق وكان الجو شديدا . فدخلت محل جروى بميدان سليمان باشا . وطلبت كوب لبن زبادى بالثلج . فما أن احضروه ووضعوه أمامى . حتى دخل الوزير إياه وزأى فأقبل نحوى يقول :

– ماشاء الله ! . . مدير دعايتى فاطر فى رمضان ؟ ؟ .

فقلت له :

– لا والله ! . . بل انى منتظر مدفع الإفطار .

قال :

– مدفع الإفطار فى المغرب . ونحن الآن فى عز الظهر . تنتظر المغرب من الظهر ؟ ؟ وأمامك كوب اللبن الثلج ؟ ؟

قلت :

– وهل انتظار المغرب فى أى وقت حرام ؟ ؟ .

قال

– الحرام هو البحلقة فى اللبن الزبادى . . إنه اشتهاء وغزل يا استاذ ! .

– غزل ؟ ؟ . . فى اللبن الزبادى ؟ ؟ .

قال

– تصور أن أمامك الآن امرأة شهية وأنت تحلق فيها متعزلا فى رمضان . . حلال هذا أو حرام ؟ ؟ . .

قلت :

– الحرام هو فيما يؤكل .

قال :

– وهل المرأة تؤكل ؟ ؟ .

قلت :

– لا . اسمح لى يا معالى الوزير . أنا لا أفهم فى هذا الموضوع

قال :

– أنت فاهم كويس . . أنت شيطان . . أنا عارفك . . شيطان رجيم .

قلت له :

– ومعاليك كنت داخل هذا الظهر تعمل إيه ونحن فى رمضان . ومحل جروى فيه أكل وشرب ؟ ؟

قال :

– داخل فى شغل ؟ . بقابلة واحد .

قلت :

– واحد ؟ ؟ . رجل ؟ ؟

قال :

– قصدك إيه ؟ . أنا فاهم قصدك يا قليل الأدب ! . واتركنى وانصرف عنا . ثم عاد والتفت جوى ونظر نظرة ماجنة وغمز بعينه واحق .

فى اليوم التالى كنت فى مكتبى . فطلبنى حضرة بالتليفون وقال لى اسمع . أنا مستعجل . وعندى حالا فى اجتماع بمجلس الوزراء . و . عندى هنا الآن موعد مع سيدة مهمة هى التركيزه ذى سان مون . وأنت رجل عشت فى باريس وتعرف معاملة اخصائى الباريزيات . فاستقبلها نيابة عنى لما يليق تقديمها واطلبها وخذها وأنت سيد العارفين . . باى باى .

فتركت القضاء ومكرماته وفخاره . . وأخذت انتظر فى شوق غير التركيزة الحسناء . وأخذ فى هندامى . إلى أن جاء الموعد . ودق الباب وفتح . ودخلت امرأة . والعياذ بالله . بل عجوز شمطاء حيزبون تتوكأ على عصا . وتخرج من بين فكيها اسنانها كخشيخ الأفعى كلاه غير

بكير ... كان يلقب بالنظر لزيه الغريب

احمد محمد الفلالي ... الشهير بالسخرية والدهاء

جودت ... وزير الدعاية أيام عنتر

دهوم . فهمست لنفسي :

– عندها يا معالي الوزير ؟ .. كان من الواجب أن أفهم ذلك من البداية ! .. لو كان فيها خير ما كان رماها البحر !

ولكن وظيفتي كمدير دعاية كان فيها من المتاعب لون آخر .. فقد سقطت هذه الوزارة . وأجريت في البلاد انتخابات جديدة جاءت بالأغلبية الوفدية بنسبة كاسحة وألفت الوزارة برياسة مصطفى النحاس باشا .. ولست أدري ما الذي حل بي .. فقد تغيرت أيضا نفسيتي . فبعد الملس مع وزير الملس . دخلت في حالة من الجد هي النقيض للحالة السابقة . فرحلة المرح عندي تعقبها الكآبة . ومرحلة الهزل تعقبها مرحلة الحد . ولذلك أحسني نفسي . وما في داخلها من تغيرات الطقس . ولا أعرف متى يردها ومتى حرها . وكأني في حاجة داخلها إلى مصلحة أرصاد جوية .. وتحرك القلم في يدي فكتبت مقالا بعنوان : اخوان الثلاثة المزيفة ، يفهم منه أن أحزابنا الثلاثة مزيفة . ونشرت جريدة الأهرام هذا المقال في صدر صفحاتها . فهاج وماج حزب الأغلبية الوفدية . وصاح النحاس باشا : هل نحن حزب مزيف ؟ .. نحن الذين خرجنا من الانتخابات الشعبية بنصر مؤزر .. واكتسحنا أحزاب الأقلية ! .. المزيفون هم أحزاب الأقلية .. فكيف نوضع نحن مع أولئك المزيفين ؟ ! والذي يكتب ذلك هو مدير دعاية الحكومة ؟ ! .

ورأى الوزراء الحاضرون ضرورة اتخاذ اجراء رادع ضد هذا الموظف . وقال أحدهم :

– خصوصا وأن له سوابق ..

فصاحوا :

– سوابق ؟ !

فقال :

– نعم .. في عهد وزارة محمد محمود باشا ..

وجعل يذكرهم بالمقال الذي سبق أن نشرته بعنوان : « أنا عدو المرأة والبرلمان الحاضر . لأن طبيعة الاثنين واحدة وهي الثرثرة » ! .. وإذا كان لابد من دخان يخرج من تحت قبة فليكن دخان مصنع . فهو انفع للبلاد ! ..

واجتمع مجلس الوزراء لاصدار قرار بطردي من الحكومة .. ولكن شقيق رئيس الحكومة وهو « حلمي محمود » نشر مقالا ينقد فيه شقيقه رئيس حزب الأحرار الدستوريين الذي يريد طرد كاتب لرأيه وهو الذي دافع عن آراء علي حسين وعلي عبد الرازق وانتقد إجراء طردهما . والفارق الوحيد أنهما كانا ينتميان لحزب الأحرار الدستوريين . وانتهى الأمر بأن استبدلوا بالطرد خصم خمسة عشر يوما من مرتبي .

وقال وزير آخر :

– وله سابقة أخرى في عهد وزارة علي ماهر باشا فقالوا :

– ماذا فعل أيضا ؟ ..

فقال :

– نشر مقالا بعنوان « لا توجد زوجة صالحة في مصر » وذكر أن خريجات المدارس الأجنبية مثل مدرسة « الدام دي سيون » لا يصلحن زوجات صالحات . وكانت الملكة من خريجات هذه المدرسة فكانت كلما قابلت علي ماهر باشا عند ذهابه إلى القصر صاحت في وجهه تأمره بطرد هذا الكاتب الذي قيل لها أنه يشغل وظيفة مدير الدعاية ! .. ولكن عندما تقرر الطرد أخبرني وزير قائلا لعل ماهر إن طردني سيجعل الأزهر يقف بجانبي لأني لم أقصد غير الإصلاح .. فسكت عني مرغما ..

وسأل أحد الوزراء الحاضرين :

– وما هو المطلوب منا الآن ؟ .. أهو السكوت عليه عن أيضا ؟ ! ..

فرد وزير بعنف :

– مستحيل ! .. نسكت على مدير دعاية بهذا الشكل ؟ ! .. فهموني .. لماذا لا يستطيع أحد أن يعاقبه ؟ ..

فقال له آخر :

– السبب بسيط . لأنه لا ينتمي إلى حزب . ولو كان يكتب بسند من حزبه لأمكن طرده عندما يتسلم الحكم الحزب المعارض لحزبه . ولكنه كاتب يعبر عن رأيه الشخصي .

وكان نجيب الهلالي باشا أحد الوزراء الحاضرين والمشهور بالسخرية والذكاء والدهاء . يسمع كل ذلك في صمت . وأخيرا تكلم قائلا :

– عندي حل ..

فصاحوا كلهم :

– ما هو ؟

قال :

– نقله من وظيفة مدير الدعاية هذه إلى وظيفة أخرى لها نفس الدرجة ونفس المرتب ..

فرفعوا بالاجماع قائلين :

– عظيم جدا .. وبهذا لا يمكن أن يقال إنه عوقب بتخفيض في الدرجة والمرتب . مادام مربوط الوظيفة المنقول إليها لم يتغير . فما هي هذه الوظيفة ؟ ..

فأجاب نجيب الهلالي باشا بكل هدوء وجدية :

– هي .. باشكاتب محتشم الحاجب بالخانكة !

فضحك النحاس باشا والوزراء جميعا .. وماتت المسألة ..

ولم تقف إدارة الدعاية وما جرى لي فيها رغما رأيت عند هذا الحد . بل تعداه إلى الريف ناحية بلدنا . فقد كنت يوم شغلت وظيفة وكيل نيابة المركز رجلا مهما محترما يزور مكتبي أعيان البلد فيجدون على باب الحجاب والعساكر . ويشاهدون المتهمين محبوسين في الحديد مسجونين فيذهبون إلى القرية يقولون في زهو وفخار : « البك بتاعنا حاجة كبيرة قوي في الحكومة .. ذلك أن الفلاح لطول ظلمه من الحكام أصبح يقول : اللي ما يقدرش يجيبلي ما نوش عندي اعتبار » !

فلما زارني أحد هؤلاء الفلاحين من ريفنا في مكتبي وأنا مدير الدعاية . وكان من اختصاصي الإشراف على الإذاعة . لم يجد عندي عساكر ولا محابيس . بل وجد مطربا يغني على العود ومعه سيد على الربابة . فقد كان هذا المطرب قد جاءني متطلبا من رقابة الإذاعة إجازته بين مطربيها . وأصر على أن امتحنه بنفسي لأتأكد من ظلم الإذاعة .. وجعل المطرب يطلق صوته المخلخل في حجرتي ويتمايل والرقاق يسنده ويتأوه وعينه تلمع بالدمع الذي تحول . والفلاح الزائر يشاهد ذلك ويتأسف . ولم يتحمل المزيد فاستأذن وخرج راجعا إلى ريفه يقول : « يا خسارة البك بتاعنا ! .. بقى اليوم في شغلة تقل القيمة والقدر الرفة » ! ..

وبعد .. هل نراني أكتسب خبرة من عملي بالدعاية ؟ ! .. ربما . فإن كل عمل نمارسه يجب أن يكسبنا الخبرة في شيء .. وقد أدركت بحريق مع الوزير القشار أن الذي يقتل الدعاية حقا هو القشر . وقد قيل في أمثالنا الشعبية : « كيف عرفت أنها كذبة قال من كبرها » . والدعاية الملعنة هي التي تستند إلى حقيقة . فالجريدة التي تعلن عن سعة انتشارها بيان من محاسب قانوني بأرقام التوزيع تكون دعايتها سليمة . أما التي تكتفي بالكلام بأنها أوسع الجرائد انتشارا فإن دعايتها عقيمة . والدعاية للأعمال لابد فيها من الضبط والدقة . أما الدعاية للذات فلا بأس فيها من التسامح والمبالغة .

ومن العظماء من كانت له في ذلك موارد . فقد كان برنارد شو يزداد أناقة احتشاد الجماهير مثل سباق الخيل متعمدا أن يلبس سترة غريبة الألوان تلفت الأنظار ليقول الناس : انظروا هذا برنارد شو . كما كان بكاسو يلفت النظر بغرابة زيه ومظهره وهو يظهر في الاجتماعات والدعوات . أما الفيلسوف جان جاك روسو فقد كان . على حد قول كارليل في كتابه عن العظماء . يذهب إلى المسارح ويطل من مقصورته على الجمهور إذا التفت إليه الجمهور وعرفه انشرح صدره . أما إذا لم يلتفت إليه أحد فإنه يصاب بالضيق . أما أغرب دعاية فهي التي قام بها تاجر يهودي ذات يوم عندما أعلن في الصحف عن وفاة شقيقه وشريكه « شالوم كوهين » ونص في الاعلان النعي : أن العراء يرثيه بمحل تجارته الماركة الرئيسية بشارع الوسكي وقد وردت إليه أجود أنواع الحرير والكشمير والبفتة بأسعار « مهاودة » ومن يحضر يجد ما يسره .. وكنت أود أن أقلد كوهين وأعتمد مطابق هذا بالاعلان عن كتاب لي لم يزل في طيات الأوراق منذ سنوات لا يقدم ولا يؤخر مع أنه والله يستحق الرواج لأنه من تأليف الإمام الرضي . وما أنا إلا المنول عنه قبض الأثمان وسحان موزع الأرزاق .